سورة «البلد»

مكية باتفاق . وهي عشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾

يجوزُ أن تكونَ «لا» زائدةً، كما تقدَّم في ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ قاله الأخفش. أي: أُقسم؛ لأنه قال: ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ وقد أَقْسَم به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] فكيف يَجْحَد القسم به وقد أَقْسَم به. قال الشاعر:

تَذَكَّرتُ ليلَى فاعْتَرتْني صَبابةٌ وكاد صميمُ القلبِ لا يَتقطَّعُ[1]

أي: يتقطَّعُ، ودخل حرفُ «لا» صلةً، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] بدليل قوله تعالى في «صَ»: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [الآية: ٧٥].

وقرأ الحسنُ والأعمشُ وابنُ كثير: «لَأُقْسِم» من غيرِ ألفٍ بعد اللام إثباتاً[2].

وأجاز الأخفشُ أيضاً أن تكون بمعنى «أَلَا»[3].

وقيل: ليستْ بنفي القَسَم، وإنَّما هو كقولِ العربِ: لا واللهِ لا فعلتُ كذا، ولا واللهِ ما كان كذا، ولا واللهِ لَأَ فْعَلنَّ كذا.

وقيل: هي نفيٌ صحيحٌ، والمعنى: لا أقسمُ بهذا البلدِ إذا لم تكن فيه، بعد خروجك منه. حكاه مكِّيٌّ. ورواه ابنُ أبي نَجِيحٍ عن مجاهد قال: «لا» ردٌّ عليهم[4]،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١ وفيه: ضمير، بدل: صميم ، وسلف ٢١/ ٤٠٤ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١ ، وذكرها عن الحسن ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٦١ ، والمشهور عن ابن كثير في هذه الآية كقراءة الجماعة، وينظر ما سلف ٢١/ ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٣) ذكره عن الأخفش النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٢٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٧ .

وهذا اختيارُ ابنِ العربيِّ؛ لأنه قال: وأمَّا مَن قال: إنها رَدٌّ، فهو قولٌ ليس له ردٌّ؛ لأنه يصحُّ به المعنى، ويتمكَّن اللفظُ والمراد. فهو ردٌّ لكلامِ مَن أَنْكَر البعثَ ثم ابتدأ القسم[١].

وقال القشيريُّ: قولهُ «لا»: ردٌّ لمَا تَوهَّم الإنسانُ المذكورُ في هذه السورة، المغرورُ بالدنيا. أي: ليس الأمرُ كما يَحْسَبُه، مِن أنَّه لن يقدرَ عليه أحدٌ، ثم ابتدأ القسم.

و«البلد»: هي مكة، أجمعوا عليه. أي: أُقسِمُ بالبلد الحرامِ الذي أنت فيه، لكرامتك عليَّ وحبِّي لك. وقال الواسطيُّ: أي: نحلفُ لك بهذا البلد الذي شَرَّفْتَه بمكانكَ فيه حيًّا، وببركتِكَ ميتاً، يعني المدينة. والأوّلُ أصح؛ لأنَّ السورةَ نزلت بمكةَ باتِّفاق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾

يعني في المستقبل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. ومثلُه واسعٌ في كلام العِبَاد[٢]؛ تقولُ لمَن تَعِدُه الإكرامَ والحِباءَ: أنت مُكرمٌ مَحْبُوٌّ. وهو في كلام اللهِ أوسَعُ[٣]، لأنَّ الأحوال المستقبَلَةَ عنده كالحاضرة المشاهَدَة؛ وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال، وأنَّ تفسيره بالحالِ مُحالٌ: أنَّ السورة بالاتِّفاق مكيةٌ قبلَ الفتح. فروى منصورٌ عن مجاهد: «وأَنتَ حِلٌّ» قال: ما صنعت فيه من شيءٍ فأنت في حِلٍّ. وكذا قال ابن عباس: أُحِلَّ له يومَ دخل مكةَ أن يقتل مَن شاء، فقتل ابنَ خَطَلٍ ومِقْيس بنَ صبَابةَ وغيرَهما. ولم يَحِلَّ لأحدٍ من الناس أن يقتلَ بها أحداً بعد رسول الله ﷺ[٤]. وروى السُّديُّ قال: أنت في حِلٍّ ممن قاتلك أن تقتله. وروى أبو

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢١ و١٩٢٢ .

(٢) في (د) و(م): العرب، والمثبت من باقي النسخ والكشاف ٤/ ٢٥٥ ، والكلام منه.

(٣) في النسخ: واسع، والمثبت من الكشاف.

(٤) أخرج قول ابن عباس ومجاهد الطبري ٢٤/ ٤٠٣-٤٠٤ .

صالح عن ابن عباس قال: أُحِلَّتْ له ساعةً من نهار، ثم أُطبقتْ وحرِّمتْ إلى يوم القيامة، وذلك يومَ فتحِ مكةَ.

وثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ الله حرَّم مكةَ يومَ خَلَق السماواتِ والأرضَ، فهي حَرامٌ إلى أن تقومَ الساعةُ، فلمْ تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ بعدي، ولم تَحِلَّ لي إلَّا ساعةً من نهار» الحديث[١]. وقد تقدَّم في سورة «المائدة»[٢].

ابن زيد: لم يكن بها أحدٌ حَلالاً غير النبيِّ ﷺ[٣].

وقيل: وأنت مُقيمٌ فيه وهو مَحلُّك. وقيل: وأنت فيه مُحْسِنٌ، وأنا عنك فيه راضٍ. وذَكرَ أهلُ اللغةِ أنه يقال: رجلٌ حِلٌّ وحَلالٌ ومُحِلٌّ، ورجلٌ حَرَامٌ ومُحْرِمٌ وحِرْمٌ[٤]. وقال قتادةُ: أنت حِلٌّ به لَستَ بآثم[٥].

وقيل: هو ثناءٌ على النبيِّ ﷺ، أي: إنك غيرُ مرتكبٍ في هذا البلدِ ما يَحرُمُ عليك ارتكابُه؛ معرفةً منك بحقِّ هذا البيتِ، لا كالمشركين الذين يرتكبون الكفرَ بالله فيه. أي: أُقسِمُ بهذا البيتِ المعظَّم الذي قد عَرَفْتَ حُرْمتَه، فأنتَ مقيمٌ فيه معظِّمٌ له، غير مرتكِبٍ فيه ما يحرُمُ عليك.

وقال شُرَحْبِيل بن سعد: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أي: حلالٌ، أي: هم يحرِّمون مكةَ أن يقتلوا بها صيداً أو يَعضِدوا بها شجرةً، ثم هم مع هذا يَسْتحلُّون إخراجَك وقتلَك[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٥٣)، والبخاري (١٣٤٩)، ومسلم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه أحمد (٧٢٤٢)، والبخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) سلف في سورة البقرة ٢/ ٣٨٣-٣٨٤ ، وينظر ٨/ ٢٢١ .

(٣) أخرجه مطولاً الطبري ٢٤/ ٤٠٥ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٧ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٣ ، والطبري ٢٤/ ٤٠٤-٤٠٥ .

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ ، وأخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٢ .

قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾

قال مجاهدٌ وقتادةُ والضحاكُ والحسنُ وأبو صالح: «وَوَالِدٍ»: آدم عليه السلام. «وما وَلَدَ» أي: وما نَسَلَ مِن وَلَدِه[١]. أَقْسَم بهم لأنهم أعْجَبُ ما خَلَقَ اللهُ تعالى على وَجْهِ الأرض؛ لمَا فيهم من التِّبيان[٢] والنُّطْقِ والتدبير، وفيهم الأنبياءُ والدُّعاةُ إلى الله تعالى.

وقيل: هو إقسامٌ بآدم والصالحين من ذريته، وأمَّا غيرُ الصالحين فكأنهم بهائم.

وقيل: الوالدُ إبراهيم. وما وَلَد: ذرِّيتُه؛ قاله أبو عمران الجونيُّ[٣]، ثم يحتملُ أنه يريد جميعَ ذرِّيتِه، ويحتملُ أنه يريدُ المسلمين من ذريته.

قال الفرَّاء: وصَلحَتْ «ما» للناس، كقوله: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣]، وكقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣] وهو الخالقُ للذَّكرِ والأنثى.

وقيل: «ما» مع ما بعدَها في موضع المصدر؛ أي: ووالدٍ ووِلادته، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥][٤].

وقال عكرمة وسعيد بن جُبير: «ووالدٍ» يعني الذي يُوْلَدُ له، «وما ولد» يعني العاقرَ الذي لا يُولدُ له ـ وقاله ابن عباس[٥]. و«ما» على هذا نفيٌ. وهو بعيدٌ، ولا يصحُّ إلَّا بإضمارِ الموصول، أي: ووالدٍ والذي ما وَلَد، وذلك لا يجوزُ عند البصريين[٦].

وقيل: هو عمومٌ في كلِّ والدٍ وكلِّ مولودٍ؛ قاله عطيةُ العَوفيُّ. ورُوِي معناه عن ابن عباس أيضاً[٧]. وهو اختيارُ الطبريِّ[٨].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٢٤/ ٤٠٦-٤٠٧ .

(٢) في (ظ) و(ي): البيان.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٠٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤ .

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٠٦ عن ابن عباس وعكرمة.

(٦) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٢ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٠٦ من طريق عطية عن ابن عباس.

(٨) في التفسير ٢٤/ ٤٠٨ .

قال الماوَرْديُّ[١]: ويحتملُ أنَّ الوالد النبيُّ ﷺ؛ لتقدُّم ذِكْرِه. وما وَلَد أمَّتُه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أُعلِّمكم»[٢]. فأقسم به وبأمَّته بعد أن أَقْسَم ببلده؛ مبالغةً في تشريفه عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾

إلى هنا انتهى القَسَم، وهذا جوابُه. ولله أن يُقسِمَ بما يشاء من مخلوقاته لتعظيمها، كما تقدَّم. والإنسانُ هنا ابنُ آدم. ﴿فِى كَبَدٍ﴾ أي: في شدَّةٍ وعناءٍ من مُكابدة الدنيا. وأصلُ الكَبَدِ: الشدَّةُ. ومنه: تَكَبَّد اللَّبَنُ: غَلُظَ وخَثُر واشتدَّ. ومنه الكَبِد؛ لأنَّه دمٌ تَغلَّظ واشتدَّ[٣]. ويقال: كابَدْتُ هذا الأمر: قاسَيْتُ شدَّته، قال لَبيد:

يا عينُ هلَّا بَكَيْتِ أرْبَدَ إذْ قُمْنا وقامَ الخصومُ في كَبَدِ[٤]

قال ابن عباس والحسن: «في كَبَد» أي: في شدَّةٍ ونَصَب. وعن ابن عباس أيضاً: في شدَّةٍ من حَمْلِه ووِلَادتِه ورضاعِه ونَبْتِ أسنانِه، وغيرِ ذلك من أحواله[٥]. وروى عكرمةُ عنه قال: منتصباً في بَطْنِ أمِّه[٦]. والكَبَدُ: الاستواءُ والاستقامةُ. فهذا امتنانٌ عليه في الخِلْقة. ولم يَخْلقِ الله جلَّ ثناؤه دابةً في بطن أمِّها إلَّا مُنْكَبَّةً على وجهها إلا ابنَ آدم، فإنه منتصبٌ انتصاباً. وهو قولُ النخَعِيِّ ومجاهدٍ وغيرِهما.

ابنُ كيسان: منتصباً رأسُه في بطن أمِّه، فإذا أذِنَ الله أن يخرجَ من بطن أمِّه قَلَبَ رأسَه إلى رجلَيْ أمِّه[٧].

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٧٥ .

(٢) سلف ١٧/ ٦٦ .

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٢ .

(٤) ديوان لبيد ص١٦٠، وأربد هو أخو لبيد، وقد سلفت قصته مع البيت ١٢/ ٣٦-٣٧ .

(٥) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٠٨-٤١٠ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٣ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٥ عن عكرمة وابن عباس بلفظ: في انتصابٍ في بطن أمه وبعد ولادته، ولم يخلق غيره من الحيوان منتصباً.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

وقال الحسن: يُكابِد مصائبَ الدنيا وشدائدَ الآخرة[١].

وعنه أيضاً: يكابدُ الشُّكْرَ على السَّرَّاءِ، ويكابدُ الصَّبرَ على الضَّرَّاء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما. ورواه ابن عمر[٢].

وقال يَمانٌ: لم يَخْلُقِ الله خَلْقاً يكابِدُ ما يكابِدُ ابنُ آدمَ؛ وهو مع ذلك أضعفُ الخَلْقِ[٣].

قال عُلماؤنا: أولُ ما يكابدُ قَطْعَ سُرَّته، ثم إذا قُمِطَ قِماطاً، وشدَّ رِباطاً، يكابدُ الضِّيقَ والتَّعبَ، ثم يكابدُ الارْتِضاعَ، ولو فاته لضاع، ثم يكابدُ نَبْتَ أسنانِه، وتحرُّكَ لسانِه، ثم يكابدُ الفِطامَ الذي هو أشدُّ من اللِّطام، ثم يكابدُ الختانَ، والأوجاعَ والأحزانَ، ثم يكابدُ المُعَلِّم وصَوْلَتَه، والمؤدِّبَ وسياستَه، والأستاذَ وهَيبتَه، ثم يكابدُ شُغْلَ التَّزْويجِ والتعجيل فيه[٤]، ثم يكابدُ شُغْلَ الأولادِ، والخدمِ والأجناد، ثم يكابدُ شغلَ الدُّورِ وبناءَ القصور. ثم الكِبرَ والهَرَمَ وضَعْفَ الرُّكْبةِ والقدم، في مصائبَ يكثرُ تعدادُها، ونوائبَ يطولُ إيرادُها، من صُداعِ الرأس، ووجعِ الأضْراسِ، ورَمَدِ العين، وغَمِّ الدَّين، ووجعِ السِّنِّ، وأَلَمِ الأُذُنِ. ويكابِدُ مِحَناً في المالِ والنَّفْس، مثل الضَّربِ والحَبْس، ولا يمضي عليه يومٌ إلَّا يُقاسي فيه شدَّةً، ولا يكابدُ إلَّا مَشَقَّةً، ثم الموتُ بعد ذلك كلِّه، ثم مُساءلةُ المَلَكِ، وضَغطةُ القبرِ وظلمتهُ، ثم البعثُ والعَرْضُ على الله، إلى أنْ يستقرَّ به القرارُ، إمَّا في الجنة وإمَّا في النار؛ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾، فلو كان الأمرُ إليه لَمَا اختار هذه الشدائد. ودلَّ هذا على أنَّ له خالقاً دبَّره، وقضى عليه بهذه الأحوال، فلْيَمْتثِلْ أمرَه.

وقال ابن زيد: الإنسانُ هنا: آدمُ، وقولُه: «في كَبَدٍ» أي: في وَسَطِ السماء[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ ، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٣١)، والطبري ٢٤/ ٤٠٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣١/ ١٨٣ عن الحسن، والنكت والعيون ٦/ ٢٧٦ عن ابن عمر.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٨ .

(٤) بعده في النسخ الخطية: والتزويج.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٧٦ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٤١٢ .

وقال الكَلْبيُّ: إنَّ هذا نزل في رجلٍ من بني جُمَحَ، كان يقال له: أَبُو الأشدّين، وكان يأخذُ الأديمَ العُكاظِيَّ فيجعلُه تحت قدميه، ويقولُ: مَن أزالني عنه فله كذا. فيجذبهُ عشرةٌ حتى يتمزَّق ولا تزولُ قدماه، وكان من أعداء النبيِّ ﷺ، وفيه نزل: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يعني: لقوَّته[1]. وروي عن ابن عباس. ومعنى «في كَبَدٍ» أي: شديداً، يعني شديدَ الخَلْقِ، وكان مِن أشدِّ رجالِ قريش. وكذلك رُكانةُ بنُ هاشم ابنِ عبد المطلب، وكانا مَثَلاً في البأس والشدَّة.

وقيل: «في كَبَدٍ» أي: جريء القلب، غليظ الكَبِد، مع ضَعْفِ خِلْقتِه، ومهانةِ مادَّته. ابن عطاء: في ظلمةٍ وجهلٍ. الترمذيُّ: مُضِيعاً ما يَعْنيه، مُشْتغِلاً بما لا يَعْنيه.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ أي: أَيَظُنُّ ابنُ آدمَ أنْ لن يُعاقِبَه الله عزَّ وجلَّ. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ أي: أنْفقتُ ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيراً مجتمعاً ﴿أَيَحْسَبُ﴾ أي: أيظنُّ ﴿أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ﴾ أي: أنْ لم يُعاينْه ﴿أَحَدٌ﴾. بل عَلِمَ الله عزَّ وجلَّ ذلك منه، فكان كاذباً في قوله: أهْلَكتُ، ولم يكن أنفقَه.

وروى أبو هريرةَ قال: يوقفُ العبدُ، فيقال: ماذا عَمِلْتَ في المال الذي رزقتُك؟ فيقول: أنفقتُه وزَكّيتُه. فيقال: كأنك إنَّما فعلتَ ذلك ليقال سَخِيٌّ، فقد قيل ذلك. ثم يؤمرُ به إلى النار[2].

وعن سعيد عن قتادة: إنَّك مسؤولٌ عن مالِكَ من أينَ جمعتَ؟ وكيف أنفقت[3]؟

وعن ابن عباس قال: كان أبو الأشدّين يقول: أنفقتُ في عداوة محمدٍ مالاً

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤ ، والوسيط ٤/ ٤٨٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٨-٤٨٩ .

(٢) أخرجه أحمد (٨٢٧٧)، ومسلم (١٩٠٥) مطولاً من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، وسلف ١/ ٣٣ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٣ ، والطبري ٢٤/ ٤١٤ .

كثيراً، وهو في ذلك كاذب[١].

وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أَذْنبَ فاستَفْتَى النبيَّ ﷺ، فأَمَره أن يُكَفِّر. فقال: لقد ذهب مالي في الكفَّارات والنفقات منذ دخلتُ في دِين محمدٍ[٢]. وهذا القولُ منه يحتملُ أن يكونَ استطالةً بما أَنفقَ، فيكونُ طغياناً منه. أو أسفاً عليه، فيكونُ ندماً منه.

وقرأ أبو جعفر: «مالاً لُبَّداً» بتشديد الباءِ مفتوحةً[٣]، على جمعِ: لابِدٍ، مثل: راكعٍ ورُكَّع، وساجدٍ وسُجَّد، وشاهد وشُهَّد، ونحوه.

وقرأ مجاهد وحُمَيد بضمِّ الباءِ واللام مخفَّفاً، جمع لَبُود[٤]. الباقون بضمِّ اللامِ وكَسْرِها وفتح الباءِ مخفَّفاً، جمع لُبْدَةٍ ولِبْدَةٍ، وهو ما تَلبَّد، يريدُ الكَثْرة[٥]. وقد مضى في سورة الجن القولُ فيه[٦].

وروي عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقرأ: «أَيَحسب» بضم السين في الموضعين[٧].

وقال الحسن: يقولُ: أتلفتُ مالاً كثيراً، فَمَن يحاسبني به، دعني أحسبه. أَلَمْ يعلم أنَّ الله قادر على مُحاسبته، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ يرى صنيعه[٨].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٨٩-٤٩٠ عن الكلبي ومقاتل، وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٤ دون نسبة.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٤ ، وزاد المسير ٩/ ١٢٩ .

(٣) النشر ٢/ ٤٠١ .

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٤ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٨٤ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٥٦ ، وقراءة الجمهور (لُبَداً) بضم اللام وفتح الباء.

(٦) عند تفسير الآية (١٩) منها.

(٧) لم نقف على هذه الرواية بضم السين، وأخرج أبو عمر الدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (١٢٨) من طريق رجل من بني عامر عن أبيه قال: صليت خلف النبي ﷺ فقرأ: «أيحسِب أن لن يقدر عليه أحد» مكسورة السين. وأخرجه أبو يعلى شاهداً على القراءة بفتح السين كما ذكر الحافظ في المطالب العالية ٣/ ٣٩٦ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٧ . وقد قرأ بكسر السين نافع وابن عامر والكسائي، والباقون بفتحها. السبعة ص١٩١-١٩٢ ، والتيسير ص٨٤ .

(٨) ذكره بنحوه الرازي ٣١/ ١٨٤ .

ثم عَدَّد عليه نعمَه فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يُبْصِرُ بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ يَنْطِقُ به. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يستُر بهما ثغرَه. والمعنى: نحن فَعَلنا ذلك، ونحن نقدرُ على أنْ نبعثَه ونُحصِيَ عليه ما عَمِلَه.

وقال أبو حازم: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى قال: يا ابنَ آدمَ، إنْ نازَعَكَ لسانُكَ فيما حرَّمْتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بِطِبْقَينِ فأَطْبِقْ، وإنْ نازَعَكَ بَصَرُكَ فيما حرَّمتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بِطِبْقَينِ فأَطْبِقْ، وإن نازعَكَ فَرْجُكَ إلى ما حرَّمتُ عليك، فقد أعنتُكَ عليه بِطِبْقَينِ، فأَطْبِقْ»[١].

والشَّفَةُ: أصلُها شَفَهةٌ، حُذفت منها الهاء، وتصغيرُها: شُفَيهة، والجمع: شِفاهٌ. ويقال: شَفَهات وشَفَوات، والهاء أقْيَسُ، والواوُ أعمُّ، تشبيهاً بالسَّنوات. وقال الأزهريُّ[٢]: يقال: هذه شَفَةٌ ـ في الوصل ـ وشَفَهٌ، بالتاء والهاء.

وقال قتادة: نِعَمُ الله ظاهرةٌ، يقرِّرك بها حتى تشكر[٣].

قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

يعني الطريقين: طريق الخير وطريق الشرِّ. أي: بيَّناهما له بما أرسلنا من الرسُل. والنَّجْدُ: الطريقُ في ارتفاع. وهذا قولُ ابنِ عباسٍ وابنِ مسعودٍ وغيرهما[٤]. وروى قتادةُ قال: ذُكِر لنا أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «يا أيُّها الناسُ، إنَّما هما النَّجْدان: نجدُ الخيرِ، ونجدُ الشرِّ، فلِمَ تجعلُ نَجْدَ الشرِّ أحبَّ إليكَ من نَجْدِ الخير؟!»[٥].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٩٠، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٩، وأخرجه بنحوه ابن عساكر في تاريخه ٦٦/ ٢٢٩ من طريق مكحول عن النبي ﷺ.

(٢) في تهذيب اللغة ٦/ ٨٦، وما قبله منه.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١٥.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٤١٥-٤١٨، وأخرجه عن ابن مسعود أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٧٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤١٨، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٧٤، والطبري ٢٤/ ٤١٧-٤١٨ من طريق الحسن عن النبي ﷺ.

ورُوي عن عكرمةَ قال: النَّجْدان: الثَّدْيان. وهو قولُ سعيد بنِ المسيِّب والضحَّاك، ورُوِي عن ابن عباس وعليٍّ رضي الله عنهما[١]؛ لأنهما كالطريقين لحياةِ الولدِ ورِزْقِه. فالنَّجْدُ: العُلُوُّ، وجَمْعُه: نُجُود؛ ومنه سُمِّيَتْ «نجد»؛ لارتفاعها عن انخفاض تِهامةَ. فالنَّجْدان: الطَّريقان العاليان. قال امرؤ القيس:

فريقان منهم جازعٌ بَطْنَ نخلةٍ وآخَرُ منهم قاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ[٢]

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾

أي: فهلَّا أنفق مالَه الذي يزعمُ أنه أنفقه في عداوة محمدٍ، هلَّا أنفقه لاقتحامِ العَقَبةِ فيأمنَ! والاقتحامُ: الرَّمْيُ بالنفس في شيءٍ من غيرِ رَوِيَّةٍ؛ يقال منه: قَحَمَ في الأمر قُحوماً، أي: رَمَى بنفسه فيه من غير رَوِيَّةٍ. وقَحَّم الفَرَسُ فارسَه تَقْحيماً على وجهه: إذا رمَاه. وتَقْحيمُ النفسِ في الشيء: إدخالُها فيه من غير رَوِيةٍ. والقُحْمةُ بالضمِّ: المَهْلكةُ، والسنةُ الشديدة. يقال: أصابت الأعرابَ القُحْمةُ: إذا أصابهم قَحْطٌ، فدخلوا الرِّيف. والقُحَم: صِعابُ الطريق[٣].

وقال الفرَّاء والزَّجَّاج: وذكر «لا» مرةً واحدةً، والعربُ لا تكاد تُفْرِدُ «لا» مع الفعلِ الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يُعيدوها في كلامٍ آخَرَ، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١] ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]. وإنَّما

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤١٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٩ عن ابن عباس والضحاك وسعيد بن المسيب. ولم نقف عليه عن علي ﷺ، وأخرج عنه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٦٤ ، أن النجدين هما الخير والشر. وكذا أخرج الفريابي وعبد بن حميد عنه أنه قيل له: إن ناساً يقولون: إن النجدين الثديان، قال: الخير والشر. الدر المنثور ٦/ ٣٥٣ .

(٢) ديوان امرئ القيس ص٤٣ . قوله: جازع بطن نخلة، يعني بستانَ ابن معمر، وهو مجتمعٌ لواديين؛ نخلةِ الشامية، ونخلةِ اليمانية، وكبكب: اسم جبل. يعني: افترق الحيان بعد انقضاء المرتبع الذي كان يجمعهم، ورجع كل حيٍّ إلى مائه وموضع إقامته، فكانوا فرقتين، فمنهم آخذٌ سُفْلاً، ومنهم آخِذٌ عُلُوًّا. ينظر شرح الديوان، ومعجم البلدان ١/ ٤١٤ و٥/ ٢٧٧ .

(٣) الصحاح (قحم).

أَفْرَدوها لدلالةِ آخِرِ الكلامِ على معناه؛ فيجوزُ أن يكون قوله: «ثم كان من الذين آمنوا» قائماً مقامَ التكرير، كأنه قال: فلا اقتحَمَ العقبةَ ولا آمَن[١]. وقيل: هو جارٍ مجرى الدعاء، كقوله: لا نَجا ولا سَلِم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ قال سفيان بن عُيينة: كلُّ شيءٍ قال فيه: «وما أدراك» فإنه أخْبَر به، وكلُّ شيءٍ قال فيه: «وما يدريك» فإنه لم يُخْبِر به[٢]. وقال: معنى «فلا اقتحم العقبة»، أي: فلم يقتحم العقبةَ، كقول زُهَير:

وكان طَوَى كَشْحاً على مُسْتكِنَّةٍ فلا هو أبداها ولَمْ يَتَقَدَّمِ[٣]

أي: فلَمْ يُبْدِها ولم يتقدَّم. وكذا قال المبرِّد وأبو عليٍّ[٤]: «لا» بمعنى لم. وذكره البخاريُّ[٥] عن مجاهد. أي: فلم يقتحم العقبةَ في الدنيا، فلا يحتاجُ إلى التكرير. ثم فَسَّر العقبةَ وركوبَها فقال: «فَكُّ رَقَبةٍ» وكذا وكذا، فبيَّن وجوهاً من القُرَبِ المالية.

وقال ابن زيد وجماعةٌ من المفسِّرين: معنى الكلامِ الاستفهامُ الذي معناه الإنكار، تقديره: أفَلا اقْتَحَم العقبة، أو هلَّا اقتحمَ العقبة. يقول: هلَّا أنفق مالَه في فكِّ الرقاب، وإطعام السَّغْبان؛ ليُجاوِزَ به العقبةَ، فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوةِ محمدٍ ﷺ[٦].

ثم قيل: اقتحامُ العقبةِ هاهنا ضربُ مَثَلٍ، أي: هلَّا[٧] تَحَمَّلَ عِظامَ الأمورِ في

---

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٤-٢٦٥ ، وللزجاج ٥/ ٣٢٩ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٤٢١ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٠ ، وسلف ٢١/ ١٨٩ و ص٢٠٤ من هذا الجزء.

(٣) ديوان زهير ص٢٢ . قال الشارح: الكشح: الخاصرة. على مستكنة: على أمر أكَنَّه في نفسه، يقال: طوى كشحه على كذا، أي: لم يُظْهِره.

(٤) هو الفارسي، وقوله في تفسير الرازي ٣١/ ١٨٥ .

(٥) في صحيحه، قبل الحديث (٤٩٤٢).

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٩ ، وأخرجه بنحوه عن ابن زيد الطبري ٢٤/ ٤٢١ . والسغبان: الجائع. القاموس (سغب).

(٧) في (م): هل.

إنفاقِ مالِه في طاعةِ ربِّه، والإيمانِ به. وهذا إنَّما يليقُ بقولِ مَن حَمَلَ «فلا اقتحَمَ العَقَبَةَ» على الدعاء، أي: فلا نَجَا ولا سَلِمَ مَن لم يُنفِقْ مالَه في كذا وكذا.

وقيل: شبَّه عِظَمَ الذنوبِ وثِقلَها وشدَّتَها بعقبةٍ، فإذا أعتق رقبةً وعَمِلَ صالحاً، كان مَثَلُه كَمَثَلِ مَن اقتحم العقبةَ، وهي الذنوبُ التي تَضرُّه وتُؤذيه وتُثْقِلُه.

وقال ابن عمر: هذه العقبةُ جبلٌ في جهنَّم[١].

وعن أبي رجاءٍ قال: بَلَغنا أنَّ العقبةَ مَصْعَدُها سبعةُ آلافِ سنةٍ، ومَهْبِطُها سبعةُ آلافِ سنةٍ[٢].

وقال الحسن وقتادةُ: هي عقبةٌ شديدةٌ في النار دونَ الجِسْرِ، فاقْتَحِمُوها بطاعةِ الله[٣].

وقال مجاهدٌ والضحَّاك والكلبيُّ: هي الصِّراطُ يُضرَبُ على جهنَّم كحدِّ السيف، مسيرة ثلاثةِ آلافِ سنةٍ، سَهْلاً وصُعوداً وهُبوطاً[٤]. واقتحامُه على المؤمن كما بَيْنَ صلاةِ العصرِ إلى العشاء. وقيل: اقتحامُه عليه قدر ما يصلِّي صلاةَ المكتوبة[٥].

وروي عن أبي الدَّرْداءِ أنه قال: إنَّ وراءَنا عقبةٌ، أَنْجَى الناسِ منها أخفُّهم حِمْلاً[٦].

وقيل: النارُ نفسُها هي العقبةُ؛ فروى أبو رجاءٍ عن الحسن قال: بلغنا أنه ما من مسلم يُعتقُ رقبةً إلَّا كانت فداءَه من النار[٧]. وعن عبد الله بن عمر قال: مَن أعْتقَ رقبةً

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٢٦ بلفظ: جبلٌ زلالٌ في جهنم، وبنحوه في تفسير الطبري ٢٤/ ٤٢٠.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٥٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٤٩٠، وأخرجه عنهما بنحوه الطبري ٢٤/ ٤٢٠.

(٤) ذكره عنهم البغوي ٤/ ٤٨٩-٤٩٠ مطولاً.

(٥) ينظر ما سلف ١٣/ ٤٩٤.

(٦) أخرجه ابن مردويه بنحوه من حديث أبي الدرداء ﷺ مرفوعا، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٥.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٢٢.

أعْتقَ الله عزَّ وجلَّ بكلِّ عضوٍ منها عضواً منه.

وفي «صحيح» مسلمٍ عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال: «مَن أعْتقَ رقبةً أَعْتَقَ الله بكلِّ عضوٍ منها عضواً من أعضائه من النار، حتى فَرْجَه بفَرْجِه»[١].

وفي الترمذيِّ عن أبي أمامةَ وغيرِهِ من أصحاب النبيِّ ﷺ قال: «أيُّما امرئٍ مُسْلِمٍ أعتقَ امرَأً مُسْلِماً، كان فَكَاكَهُ من النار، يَجزي كلُّ عضوٍ منه عضواً منه، وأيُّما امرأةٍ مسلمةٍ أعتقتِ امرأةً مُسلمةً، كانت فَكاكَها من النار، يَجزي كلُّ عضوٍ منها عضواً منها». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[٢].

وقيل: العقبةُ: خلاصُه من هَوْلِ العَرْض. وقال قتادةُ وكعب: هي نارٌ دون الجسر[٣].

وقال الحسن: هي واللهِ عقبةٌ شديدةٌ: مجاهدةُ الإنسانِ نفسَه وهواه وعدوَّه الشيطان[٤]. وأنشد بعضهم:

إنِّي بُلِيتُ بأربعٍ يَرْمينَني ... بالنَّبْلِ قد نَصَبوا عَليَّ شِرَاكا

إبليسُ والدنيا ونفسي والهوى ... من أين أرجو بينهنَّ فَكَاكا

يا ربِّ ساعِدْني بعفوٍ إنَّني ... أصبحتُ لا أرجو لهنَّ سِواكا

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾

فيه حذفٌ، أي: وما أدراك ما اقتحامُ العقبة. وهذا تعظيمٌ لالتزامِ أمرِ الدِّين، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، ليعلِّمه اقتحامَ العقبة. قال القشيريُّ: وحَمْلُ العقبةِ على عَقَبةِ جهنَّم بعيدٌ؛ إذ أحدٌ في الدنيا لم يقتحم عقبةَ جهنَّم، إلَّا أنْ يُحملَ على أنَّ المرادَ:

---

(١) صحيح مسلم (١٥٠٩)، وهو عند أحمد (٩٤٤١)، والبخاري (٦٧١٥).

(٢) سنن الترمذي (١٥٤٧).

(٣) أخرجه عن قتادة الطبري ٢٤/ ٤٢٠ ، وسلف عنه بنحوه قريباً.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٦ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢٦ .

فهلَّا صَيَّر نفسَه بحيث يُمكِنُه اقتحامُ عقبةِ جهنَّمَ غداً.

واختار البخاريُّ قولَ مجاهدٍ: إنه لم يقتحم العقبةَ في الدنيا. قال ابن العربيِّ[١]: وإنَّما اختار ذلك لأجْلِ أنه قال بعد ذلك في الآيةِ الثانيةِ: «وما أدراكَ ما العَقَبةُ»، ثم قال في الآيةِ الثالثة: «فَكُّ رَقَبةٍ»، وفي الآية الرابعة: «أوْ إطْعامٌ في يومٍ ذي مَسْغَبةٍ»، ثم قال في الآية الخامسة: «يتيماً ذا مَقْرَبةٍ»، ثم قال في الآيةِ السادسةِ: «أو مسكيناً ذا مَتْرَبةٍ»، فهذه الأعمالُ إنَّما تكون في الدنيا. المعنى: فلم يأتِ في الدنيا بما يُسَهِّل عليه سلوكَ العقبةِ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ فكُّها: خلاصُها من الأسْرِ. وقيل: من الرِّقِّ. وفي الحديث: «وفكُّ الرقبةِ أنْ تُعينَ في ثَمَنِها» من حديث البرَاء، وقد تقدَّم في سورة براءة[٢]. والفكُّ: هو حَلُّ القيدِ، والرِّقُّ قَيْدٌ. وسمِّي المرقوقُ رَقَبةً؛ لأنه بالرِّق كالأسيرِ المربوطِ في رقبته[٣]. وسُمِّي عتقُها فَكًّا [لأنه] كَفَكِّ الأسيرِ من الأسر؛ قال حسان:

كَمْ من أسيرٍ فَكَكناه بلا ثَمَنٍ ... وجَزِّ ناصيةٍ كنَّا مَوَاليها[٤]

وروى عُقبةُ بنُ عامرٍ الجهنيُّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن أَعْتقَ رقبةً مؤمنةً كانت فداءَه من النار»[٥].

---

(١) في أحكام القرآن ٤/١٩٢٦-١٩٢٧ ، وينظر صحيح البخاري قبل الحديث (٤٩٤٢).

(٢) ١٠/٢٦٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٢٦ .

(٤) ديوان حسان ص٤٨٥ ، والكلام من النكت والعيون ٦/٢٧٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) أخرجه أحمد (١٧٣٢٦) و(١٧٣٥٧). ونقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٦/٢٧٩ .

قال الماوَرْدِيُّ[١]: ويحتمِلُ ثانياً: أنه أراد فكَّ رقبتِه وخلاصَ نفسِه، باجتناب المعاصي، وفِعْلِ الطاعات، ولا يمتنع[٢] الخبرُ من هذا التأويل، وهو أَشْبهُ بالصَّواب.

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَقَبَةٍ﴾ قال أصبَغُ: الرقبةُ الكافرةُ ذاتُ الثَّمنِ أفضلُ في العِتق من الرقبةِ المؤمنةِ القليلةِ الثَّمنِ؛ لقول النبيِّ ﷺ وقد سُئل: أيُّ الرقابِ أفضلُ؟ قال: «أغلاها ثمناً، وأنفسُها عند أهلها»[٣]. ابن العربيِّ[٤]: والمرادُ في هذا الحديثِ: مِن المسلمين. بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن أعْتَقَ امرَأً مُسْلماً» و«مَن أعتقَ رقبةً مُؤمِنةً». وما ذكره أصبغُ وَهْلَةٌ[٥]، وإنَّما نَظَرَ إلى تنقيص المال، والنظرُ إلى تجريد المعتَقِ للعبادة، وتفريغِه للتوحيد، أَوْلَى.

الثالثة: العِتْقُ والصَّدقةُ من أفضل الأعمال. وعن أبي حنيفةَ: أنَّ العتقَ أفضلُ من الصدقة. وعند صاحبيه الصدقةُ أفضلُ. والآيةُ أدلُّ على قولِ أبي حنيفةَ؛ لتقديم العتقِ على الصدقة. وعن الشعبيِّ في رجلٍ عنده فَضْلُ نفقةٍ: أيضَعُه في ذي قرابةٍ، أو يعتقُ رقبةً؟ قال: الرقبةُ أفضلُ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن فكَّ رقبةً فكَّ الله بكلِّ عضوٍ منها عضواً من النار»[٦].

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: مَجَاعةٍ. والسَّغَبُ: الجوع.

---

(١) في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩ .

(٢) في النكت والعيون: ولا يمنع.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٢٧ ، والحديث أخرجه أحمد (٢١٣٣١)، والبخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) عن أبي ذر ﷺ، وسلف ١٠/ ٥٨ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٢٨ .

(٥) أي: سهو وغلط، وَهَل فلان: سَها، ووَهِل عنه: غلط فيه ونسيه. المعجم الوسيط (وهل).

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٦ ، وسلف الحديث عند تفسير الآية (١١) من هذه السورة.

والساغبُ: الجائع. وقرأ الحسن: «أو إطعامٌ في يومٍ ذا مَسْغَبةٍ» بالألف في «ذا»[١]. وأنشد أبو عبيدة[٢]:

فلَوْ كنتَ جاراً يا ابنَ قيس بنِ عاصمٍ لَمَا بِتَّ شَبْعاناً وجارُك ساغِبَا[٣]

وإطعامُ الطعامِ فضيلةٌ، وهو مع السَّغَبِ الذي هو الجوعُ أفضلُ. وقال النَّخَعيُّ في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ قال: في يومٍ عزيزٍ فيه الطعامُ[٤]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مِن مُوْجِباتِ الرَّحمةِ إطعامُ المُسْلِمِ السَّغْبان»[٥].

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: قَرابةٍ. يقال: فلانٌ ذو قَرابتي وذو مَقْرَبتي. يعلِّمكَ أنَّ الصَّدقةَ على القرابة أفضلُ منها على غيرِ القرابة، كما أنَّ الصَّدقة على اليتيم الذي لا كافلَ له أفضلُ من الصدقة على اليتيم الذي يجدُ مَن يَكْفلُه.

وأهلُ اللغةِ يقولون: سُمِّي يتيمًا لضَعْفِه. يقال: يَتُمَ الرجلَ يُتْماً: إذا ضَعُفَ. وذَكَروا أنَّ اليَتيمَ في الناس مِن قِبَلِ الأب، وفي البهائم مِن قِبَلِ الأمهات. وقد مضى في سورة البقرة مُستوفًى[٦]، وقال بعضُ أهلِ اللغةِ: اليتيمُ الذي يموتُ أبواه. وقال قيس بن الملوِّح:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٤ ، والمحتسب ٢/ ٣٦٢ ، وستأتي.

(٢) في (ط): عبيد.

(٣) ذكره السمعاني في تفسيره ٦/ ٢٣٠ برواية: ساغبُ.

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥ .

(٥) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٢٤ ، والبيهقي في الشعب (٣٣٦٥) من طريق محمد بن المنكدر عن جابر ﷺ، وفي إسناده طلحة بن عمرو المكي، ضعفه ابن معين وغيره، وقال أحمد والنسائي: متروك، وقال البخاري وابن المديني: ليس بشيء. الميزان ٢/ ٣٤٠.

وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٣٦٣) بإسناد آخر عن محمد بن المنكدر قوله، و(٣٣٦٤) عن محمد بن المنكدر عن النبي ﷺ مرسلاً. وأخرجه هناد في الزهد (٦٣٤) عن مجاهد قوله.

(٦) ٢/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

إلى اللهِ أشكو فقدَ لَيْلَى كما شَكا إلَى اللهِ فَقْدَ الوالِدَيْنِ يَتِيمُ[١]

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: لا شيءَ له، حتى كأنه قد لَصِقَ بالتُّراب من الفقر، ليس له مَأوًى إلَّا الترابُ. وقال ابن عباس: هو المطروحُ على الطريق، الذي لا بيتَ له. مجاهد: هو الذي لا يَقيه من التراب لِباسٌ ولا غيرُه. وقال قتادةُ: إنَّه ذو العِيال[٢].

عكرمةُ: المديون. أبو سنان: ذُو الزَّمانَةِ. ابن جبير: الذي ليس له أحد. وروى عكرمةُ عن ابن عباس: ذو المَتْرَبَةِ: البعيدُ التُّرْبةِ، يعني الغريب البعيد عن وطنه[٣].

وقال أبو حامد الخارْزَنْجِيُّ: المَتْربةُ هنا: من التَّرِيب، وهي شدَّةُ الحالِ؛ يقال: تَرِبَ، إذا افتقرَ. قال الهُذَليُّ:

وكُنَّا إذا ما الضيفُ حَلَّ بأرْضِنا سَفَكْنا دِماءَ البُدْنِ في تُرْبةِ الحالِ[٤]

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والكسائيُّ: «فَكَّ» بفتحِ الكاف على الفعل الماضي، «رقبةً» نَصْباً لكونها مفعولاً، «أو أطْعَمَ» بفَتْحِ الهمزةِ ونَصْبِ الميم، من غيرِ ألف، على الفعل الماضي أيضاً؛ لقوله: «ثم كان مِن الذين آمنوا»، فهذا أَشْكَلُ بـ«فكَّ» و«أطْعمَ».

وقرأ الباقون: «فَكُّ» رفعاً على أنَّه مصدرُ فَكَكْتُ، «رقبةٍ» خفض بالإضافة، «أو إطعامٌ» بكَسْرِ الهمزة وألفٍ ورفعِ الميم وتَنوينِها، على المصدر أيضاً[٥]. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنه تفسيرٌ لقوله تعالى: «وما أدْرَاكَ ما العَقَبةُ»، ثم أخْبَره فقال:

---

(١) ديوان مجنون ليلى ص٢٤٤.

(٢) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩، وأخرجها الطبري ٢٤/ ٤٢٦ - ٤٣٠.

(٣) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٩، وخبر ابن عباس أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٥٩٣، واللسان (حول) دون نسبة. قال ابن هشام: يعني بالحال: الطين الذي يخالطه الرمل.

(٥) السبعة ص٦٨٦، والتيسير ص٢٢٣.

«فَكُّ رَقَبةٍ. أو إطْعَامٌ». المعنى: اقتحامُ العقبةِ: فكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ. ومَن قرأ بالنَّصْب فهو محمولٌ على المعنى، أي: ولا فَكَّ رقبةً، ولا أطعمَ في يومٍ ذي[1] مَسْغَبة، فكيف يُجاوِزُ العَقَبة.

وقرأ الحسن وأبو رَجاء: «ذا مَسْغبةٍ» بالنَّصب على أنه مفعولُ «إطعامٌ»، أي: يُطْعِمون ذا مَسْغَبةٍ، و«يَتيماً» بدلٌ منه. الباقون: «ذِي مَسْغَبةٍ»، فهو صفةٌ لـ«يومٍ». ويجوزُ أنْ تكونَ قراءةُ النَّصْبِ صفةً لموضعِ الجارِّ والمجرور؛ لأنَّ قوله: «في يومٍ» ظَرْفٌ منصوبُ الموضعِ، فيكونُ وصفاً له على المعنى دونَ اللَّفْظ[2].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعني: أنَّه لا يقتحمُ العقبةَ مَن فكَّ رقبةً، أو أطعمَ في يومٍ ذي[3] مَسْغَبةٍ، حتى يكون مِن الذين آمنوا، أي: صدَّقوا، فإنَّ شَرْطَ قَبولِ الطاعاتِ الإيمانُ بالله. فالإيمانُ بالله بَعْدَ الإنفاقِ لا ينفعُ، بل يجبُ أن تكونَ الطاعةُ مصحوبةً بالإيمان، قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]. وقالت عائشة: يا رسولَ الله، إنَّ ابنَ جُدْعَانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ الطعامَ، ويَفُكُّ العانيَ، ويُعتقُ الرقابَ، ويحملُ على إبله لله، فهل ينفعُه ذلك شيئاً؟ قال: «لا، إنَّه لم يَقُلْ يوماً: ربِّ اغفرْ لي خطيئتي يومَ الدِّين»[4].

وقيل: «ثُمَّ كانَ مِن الذينَ آمَنوا» أي: فَعَلَ هذه الأشياءَ وهو مؤمنٌ، ثم بقي على

---

(١) في (م): ذا.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٦٢، وسلفت القراءة في بداية تفسير هذه الآية.

(٣) في (م): ذا.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٦٢١)، ومسلم (٢١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلف ١٦/ ٤٠.

إيمانه حتى الوفاةِ، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقيل: المعنى: ثم كان من الذين يؤمنون بأنَّ هذا نافعٌ لهم عند الله تعالى.

وقيل: أتَى بهذه القُرَبِ لوجهِ الله، ثم آمَنَ بمحمدٍ ﷺ؛ وقد قال حكيم بنُ حزام بعدَ ما أسْلَم: يا رسول الله، إنَّا كنَّا نَتحنَّثُ بأعمالٍ في الجاهلية، فهل لنا منها شيءٌ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أَسْلَمْتَ على ما أَسْلَفْتَ من الخير»[1].

وقيل: إنَّ «ثم» بمعنى الواو، أي: وكان هذا المُعْتِقُ الرقبةَ، والمُطْعِمُ في المسغبة، من الذين آمنوا. ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ أي: أوْصَى بعضُهم بعضاً ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب ﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: بالرَّحمة على الخَلْق؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك رَحِموا اليتيمَ والمسكين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: الذين يُؤْتَوْنَ كتبَهم بأيمانهم؛ قاله محمد بن كعب القُرَظيُّ وغيرُه. وقال يحيى بن سلام: لأنهم ميامينُ على أنفسهم. زيد بن أسلم: لأنهم أُخِذوا من شِقِّ آدمَ الأيمنِ. وقيل: لأنَّ منزلتهم عن اليمين؛ قاله مَيمون بن مِهران.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: القرآن. ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: يأخذون كُتُبَهم بشَمائلهم؛ قاله محمد بن كعب. يحيى بن سلام: لأنَّهم مَشائيمُ على أنفسهم. زيد بن أسلم[2]: لأنهم أُخِذوا من شِقِّ آدمَ الأيسرِ. ميمون: لأنَّ منزلتهم عن اليسار.

قلت: ويجمعُ هذه الأقوالَ أن يُقال: إنَّ أصحاب الميمنةِ أصحابُ الجنةِ، وأصحابَ المَشأمةِ أصحابُ النارِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٨] وقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٢]. وما كان مِثْلَه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣١٨)، والبخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣)، وسلف ١٠/ ٢٣٧، والتحنث: التعبُّد.

(٢) وقع في النسخ: ابن زيد، بدل: زيد بن أسلم، في الموضعين، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٢٨٠، والكلام منه، وسلف هذا القول عن زيد بن أسلم في تفسير الآية (٨) من سورة الواقعة.

ومعنى ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مُطْبَقة مُغْلَقَة، قال:

تَـحِـنُّ إلـى أجـبـالِ مـكـةَ نـاقَـتـي ومِن دُونِها أبوابُ صنعاءَ مُؤصَدَهْ[1]

وقيل: مُبْهمة، لا يُدْرَى ما داخِلُها. وأهلُ اللُّغةِ يقولون: أوْصَدْتُ البابَ وآصدْتُهُ، أي: أغلقتُه. فَمَن قال: أوْصَدْتُ، فالاسمُ الوِصَاد، ومَن قال: آصْدْتُه، فالاسمُ الإصاد.

وقرأ أبو عمرو وحفصٌ وحمزةُ ويعقوبُ، والشَّيزَريُّ عن الكسائيِّ: «مُؤصَدَة» بالهَمْزِ هنا وفي «الهُمَزة»[2]. الباقون بلا هَمْزٍ. وهما لُغتان. وعن أبي بكر بن عياش قال: لنا إمامٌ يهمزُ «مُؤصَدَة»، فأشْتَهي أنْ أسُدَّ أذنيَّ إذا سمعتُه[3].

سورة «الشمس»

وهي مكِّيةٌ باتِّفاقٍ، وهي خَمْسَ عَشْرةَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾

قال مجاهد: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾ أي: ضوئِها وإشْراقِها. وهو قَسَمٌ ثانٍ. وأضاف الضُّحَى إلى الشمس؛ لأنه إنَّما يكون بارتفاعِ الشمس. وقال قتادةُ: نَهارها[4]. السُّدِّيُّ:

---

(١) إصلاح المنطق ص١٨٠ ، وأنشده ابن عباس لنافع بن الأزرق، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٥ عن الطستي.

(٢) السبعة ص٦٨٦ ، والتيسير ص٢٢٣ ، والنشر ١/ ٣٩٥ عن أبي عمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف. والمشهور عن الكسائي: «موصدة» بغير همز.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٧ . قال السمين في الدر المصون ١١/ ١٢ : وكأنه لم يحفظ عن شيخه إلا تركَ الهمز، مع حِفْظِ حفص إياه (يعني الهمز) عنه.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٤٣٤ ، ووقع في (م): بهاؤها.